

البلاء والإحاد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

من المسلمين ما إن يُبتلى بشيء من الفقر، أو المرض، أو الضيق والعسر .. إلا ويبدأ يتساءل: لماذا ينزل بي هذا البلاء .. لماذا أنا فقير .. لماذا أنا مريض .. لماذا أنا مُبتلى بكذا وكذا .. ماذا فعلت لينزل بي هذا البلاء، وأنا المسلم المصلي الموحد .. بينما غيبي الكافر فلان وفلان تراه موفور الصحة والمال .. لا يعرف العسر ولا الضيق الذي أنا فيه .. فلو كان الله يحب الإيمان والمؤمن، ويغض الكفر والكافرين، فعلام يبتلي أهل الإيمان بالفقر والشدائد .. بينما أهل الكفر والإحاد يتنعمون ويتقبلون بالنعمة الوفيرة؟! ثم يبدأ يتوسّع في سوء الظنّ بالله .. ويبدأ الشيطان يتوسّع عليه بطرح الأسئلة والتساؤلات .. إلى أن ينتهي به المطاف إلى الشك بالله تعالى، وإلى الكفر والإحاد .. وبخاصة إن كان يفقد العلم الذي يمكنه من الإجابة عن تلك الوسواس والتساؤلات!

ونحن في هذه المقالة، نجتهد أن نجيب - بعون الله تعالى وتوفيقه ومشيبته - عن تلك التساؤلات من خلال النقاط التالية .. عسى أن تكون - بإذن الله تعالى ومشيبته - سبب هداية لمن ضل به الطريق، وتحظفته الظنون الخاطئة .. والله تعالى يهدي من يشاء إلى سواء السبيل.

أولاً: ليعلم الجميع؛ المسلم والكافر، المؤمن والملحد .. أن الحياة الدنيا ليست دار قرار، واستقرار، وجزاء .. وإنما هي دار عمل واختبار وبلاء، وفناء، وإلى أجلٍ مُسمّى .. متاعها بلاء .. يبتلي الله تعالى عباده باليسر، والعسر، وبالشدّة، والرخاء .. بالسراء تارةً، وبالضراء تارةً، وبهما معاً تارةً أخرى .. لينظر ماذا يفعلون .. وكيف يتصرفون .. فهل يشكرون، ويصبرون .. أم يكفرون، ويجزعون، ويلحدون .. ثم إذا ما بُعثوا وجاؤوا يوم القيامة، وجد كل إنسان جزاء ما قدم لنفسه من عمل، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر: [فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ] [الزلزلة: 7-8]. وقال تعالى: [وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى] [النجم: 39-41].

هكذا هي الحياة الدنيا، وهكذا أرادها خالقها، ومالكها، خالق ومالك السموات والأرض وما بينهما [لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ] [المائدة: 18]. سواء رضيتم وصبرتم أم سخطتم وجزعتم .. وسواء شكرتم أم كفرتم .. ثم أن كفرتم وسخطتم وجزعتم، لن يُغير من هذه الحقيقة المطلقة شيئاً، ولن يضر الله شيئاً، وهو لا يزيدكم إلا ضنكاً، وخسارة، في الدنيا والآخرة .. هذه الحقيقة قد

دلّ عليها النقل، والعقل، لا يُجادل فيها إلا من أعمى الله بصره وبصيرته، قال تعالى: [الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ] [الملك: 2]. وقال تعالى: [وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ] [الأنعام: 165]. [وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ] [المائدة: 48]. [أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ] [العنكبوت: 2]. [وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ] [محمد: 31]. أي لنظهر أخباركم وأحوالكم، وما كان منكم من عمل، فنجازيكم عليه. وقال تعالى: [وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ] [البقرة: 155]. [وَنَبْلُوَكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ] [الأنبياء: 35]. [وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحُسْنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ] [الأعراف: 168]. عن الضلالة إلى الهدى، قال ابن كثير في التفسير: [وَبَلَّوْنَاهُمْ]؛ أي اختبرناهم [بِالْحُسْنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ]؛ أي بالرخاء والشدة، والرغبة والرغبة، والعافية والبلاء - هـ. ثم بعد ذلك من شكر وصبر فإنما يشكر ويصبر لنفسه؛ لأنه هو المحتاج إلى الشكر والصبر، وما ينجم عنهما من خيرات وثمار طيبة في الدنيا والآخرة .. والله تعالى هو الغني عن عباده، وعبادتهم: [وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ] [لقمان: 12].

ثانياً: بلاء الشدة ليس دائماً علامة على سحق الرحمن، بل أحياناً يكون علامة دالة على الرضا والحب، والاصطفاء، كالبلاء الذي ينزل بالأنبياء، والشهداء، والصدّيقين، والصالحين، ليضعف لهم الأجر، وليعلي من درجاتهم ومقاماتهم الرفيعة يوم القيامة .. كما في الحديث، عن سعد بن أبي وقاص، قال: قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: "الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى العبد على حسب دينه؛ فإن كان في دينه صلماً اشتد بلاءه وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه .." [1].

وعن أبي سعيد الخدري قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك فوضعت يدي عليه فوجدت حره بين يدي فوق اللحاف. فقلت يا رسول الله ما أشدها عليك! قال إننا كذلك يُضعف لنا البلاء ويُضعف لنا الأجر. قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: "الأنبياء"، قلت يا رسول الله ثم من؟ قال: "ثم الصالحون؛ إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يجويها وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء" [2].

وفي رواية: وعن أبي سعيد رضي الله عنه أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو موعوك عليه قطيفة، فوضع يده فوق القطيفة، فقال: ما أشدَّ حَمَّكَ يا رسول الله! قال ﷺ: "إننا كذلك يُشدد علينا البلاء، ويُضعف لنا الأجر"، ثم قال: يا رسول الله من أشد الناس بلاء؟ قال: "الأنبياء" قال: ثم من؟ قال: "العلماء"، قال:

¹ صحيح سنن ابن ماجه: 3249.

² صحيح سنن ابن ماجه: 3250.

ثم من؟ قال: "الصالحون، وكان أحدهم يُبتلى بالقَمَلِ حتى يقتله، ويبتلى أحدهم بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يلبسها، ولأحدهم كان أشد فرحاً بالبلاء من أحدكم بالعطاء" [3].

وقال ﷺ: "إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط" [4].

وقال ﷺ: "إذا أحب الله عبداً حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمَه الماء" [5].
وسئل رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: "الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الناس على قدر دينهم؛ فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه" [6].

وقال ﷺ: "كما يُضاعف لنا الأجر، كذلك يُضاعف علينا البلاء" [7].
وقال ﷺ: "إنا معشر الأنبياء يُضاعف علينا البلاء" [8].

قالت عائشة رضي الله عنها: "لم يزل البلاء بالرسول، حتى خافوا أن يكون من معهم يكذبونهم، فكانت تقرأ قوله تعالى: [حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا] يوسف: 110. "البخاري.
وقال ﷺ: "ما أودى أحدٌ ما أوديت في الله ﷻ" [9].

وفي الحديث القدسي: "يقول الله تعالى - لنبيه عليه الصلاة والسلام -: إني مبتليكَ، ومُبتلٍ بك "مسلم.
وقال ﷺ: "إن الرجل ليجوئ عند الله المنزلة، فما يبلغها بعملٍ، فما يزال يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها" [10].

وقال ﷺ: "إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة فلم يبلغها بعملٍ، ابتلاه الله في جسده أو ماله أو في ولده، ثم صبر على ذلك حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله ﷻ" [11]. فالذي لا يُبتلى قط فهو في آخر طابور الإيمان والمؤمنين.

نعم؛ هناك مقاصد وغايات أخرى للبلاء غير ما تقدم، كالبلاء الذي ينزل طهوراً وكفارة لصاحبه من ذنوبه، أو البلاء الذي ينزل انتقاماً وتأديباً للظالمين والمجرمين .. أو البلاء الذي ينزل لغرض إعادة التائبين الضائعين إلى رحمة، وإلى الطاعة والاستقامة، وغيرها من المقاصد، ولكل نوع من هذه المقاصد والغايات

³ صحيح الترغيب والترهيب: 3403.

⁴ صحيح سنن الترمذي: 1954.

⁵ صحيح سنن الترمذي: 1659.

⁶ صحيح الترغيب والترهيب: 3402.

⁷ صحيح الجامع: 4577.

⁸ صحيح الجامع: 2288.

⁹ السلسلة الصحيحة: 2222.

¹⁰ صحيح الترغيب والترهيب: 3408.

¹¹ صحيح الترغيب والترهيب: 3409.

القرائن الدالة عليه، وغرضنا هنا ليس استقصاء جميع مقاصد وغايات البلاء، فهذا له موضع آخر، وإنما أردنا أن نبين أن البلاء لا يعني دائماً، ولا يلزم منه أن يكون علامة على سخط الرحمن، وانتفاء المحبة والرضا.

ثالثاً: بلاء الخير والسعة، والإفضال بنعم الدنيا، وخيراتها، وزينتها، لا يعني ولا يلزم منه بالضرورة أن يكون علامة دالة على الرضا، وانتفاء السخط، وبخاصة إن كان العبد المنعم عليه مقيماً على الظلم، والبغي، والكفر، والفسوق .. وعدم الشكر .. فيحتمل أن يكون بلاء الخير والسعة استدراجاً وإمهالاً له، ليزداد طغياناً وكفراً، وإفساداً، فيزداد عليه العذاب، كما في الحديث، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: " إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يجب فإنما هو استدراج، ثم تلا: [فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ] " [12].

وقال ﷺ: " إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته. قال: ثم قرأ: [وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ] " البخاري.

وقال تعالى: [وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ . وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُررًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ . وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ] الزخرف: 33-35. قال ابن كثير في التفسير: أي لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطينا، فيجتمعون على الكفر لأجل المال، هذا معنى قول ابن عباس والحسن وقتادة والسدي وغيرهم، [لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ] أي سلام ودرجاً من فضة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي وابن زيد وغيرهم، [وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا] أي إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى، أي يعجل لهم بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشرب ليوافوا الآخرة، وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة يجزيهم بها، [وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ] أي هي خالصة لا يُشاركهم فيها أحد غيرهم - هـ.

وكذلك قصة الطاغية قارون، التي يحكيها لنا القرآن الكريم، لنا فيها عبرة وعظة، فهو على طغيانه وكفره، فقد آتاه الله من الكنوز والمال ما يثقل على الجمع الغفير من الرجال الأشداء، حمل مفاتيح ما لديه من كنوز وخزائن، حتى كاد أن يكون فتنة لصعاف الإيمان في زمانه: [إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ . قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ . فَخَرَجَ عَلَى

¹² أخرجه أحمد وغيره، السلسلة الصحيحة: 413.

قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ . فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ . وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَفِّرُ اللَّهُ بِسُوءِ الرَّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَفِّرُنَا لَّا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ [القصص: 76-82 .

وكان النبي ﷺ أحياناً يعطي المؤلفة قلوبهم ما لم يعط المهاجرين والأنصار، ولم يكن ذلك دليلاً على أن النبي ﷺ يحب المؤلفة قلوبهم أكثر من المهاجرين والأنصار .

وفي الحديث، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء أعرابيٌّ، فقال النبي ﷺ: " هل أخذتَ أمِ مِلدَم - يعني الحمى -؟ " قال: وما أمِ مِلدَم؟ قال: " حرٌّ بين الجلد واللحم "، قال: لا، قال: " فهل صُدِعت؟ "، قال: وما الصداع؟ قال: " ريح تعترض الرأس، تضربُ العروق "، قال: لا، قال: فلما قام، قال: " من سرّه أن ينظر إلى رجلٍ من أهلِ النار " أي فلينظره [13].

ويمكن أن يُقال كذلك: أن ما يُعطاه الكافر في الدنيا من مال ونعم وسعة، قد يكون جزاءً على ما فعله وبفعله من حسنات، حتى إذا جاء يوم القيامة لا يكون له إلا النار، كما في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه، عن النبي ﷺ أنه قال: " إن الله لا يظلم مؤمناً حسنةً يُعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعمُ بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُجزى بها "

وقولنا المتقدم بأن بلاء الخير والسعة، والإفضال بنعم الدنيا، وخيراتها، وزينتها، لا يعني ولا يلزم منه بالضرورة أن يكون علامة دالة على الرضا، وانتفاء السخط .. لا ينفي أن يكون أحياناً علامة دالة على الرضا والمحبة، وذلك عندما العبد يتقي الله، ويشكر الله، ويوفي ما لله عليه من حق في ماله ونفسه .. فالله حينئذٍ يضاعف له العطاء والجزاء، ويزيده من فضله، ونعمه، جزاءً على تقواه وشكره، كما قال تعالى: [وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ [الطلاق: 3. وقال تعالى: [وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَّرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ [إبراهيم: 7. وقال تعالى: [مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً [البقرة: 245. وقال تعالى: [وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ حَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ حَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ [البقرة: 272. وقال تعالى: [وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ [هود: 52. [فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا [نوح: 10-12 .

¹³ صحيح الأدب المفرد: 381.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: " ما من يوم يُصْبِحُ العبادُ فيه، إلا مَلَكَانِ يَنْزِلانِ، فيقول أحدهما: اللهم أعطِ مُنْفِقاً خَلْفاً، ويقول الآخر: اللهم أعطِ مُمَسِكاً تَلْفاً "متفق عليه.

وقال ﷺ: " إِنَّ لَهِ أَقْوَاماً يَخْتَصُّهُمُ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ، وَيُقْرَهُمُ فِيهَا مَا بَدَلُوها، فَإِذَا مَنَعُوها نَزَعُها مِنْهُم، فَحَوَّها إِلى غَيْرِهِمْ " [14]. فالإفضال بالنعم في هذا الموضوع علامة على الرضا والحب، والأدلة الدالة على هذا المعنى كثيرة جداً .. والذي يفرق بينه، وبين المعنى السابق الذي يفيد السخط والاستدراج، القرائن الخيطة بالإنسان ذاته؛ هل هو من الكافرين الجاحدين لفضل الله، أم هو من المؤمنين الشاكرين لله ولأنعمه التي لا تُحصى.

وكذلك قوله ﷺ: " إِنْ لَهِ قِسْمٌ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقِكُمْ كَمَا قِسْمٌ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقِكُمْ، وَ إِنْ لَهِ يَعْطِي الدُّنْيَا مِنْ يَجِبُ وَمَنْ لَا يَجِبُ، وَلَا يَعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مِنْ أَحَبِّ " [15]. فأحياناً يكون العطاء دليلاً على الحب، وأحياناً يكون دليلاً على خلاف ذلك بحسب التفصيل المتقدم.

فالمؤمن أكمل سعيًا، وأكثر توفيقًا، فهم يقولون: [رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ] البقرة: 201. بينما الكافر يقول: [رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ] البقرة: 200.

رابعاً: كما أن المؤمن المحتسب الصابر يُبتلى بصنوف من الشدة، كذلك من الكافرين من يُبتلى بها وزيادة، فليس لنا كل مرة، وهم كل حلوة، وهذا لا تُخطئه العين المشاهدة، والفرق بينهما؛ أن المؤمن يؤجر على صبره واحتسابه فيما أصابه، بينما الآخر الكافر المشرك ليس له أجر يوم القيامة على ما أصابه .. كما قال تعالى: [إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا] النساء: 104.

والمؤمن يُبتلى بالشدة تكفيراً لذنوبه، ورفعاً لمقاماته ودرجاته يوم القيامة، بينما الكافر المشرك يبتلى بالشدائد انتقاماً وزجراً، وتبكيئاً .. هذا غير الوعيد الشديد الذي ينتظره يوم القيامة، والفرق بينهما جد واسع.

وكونه في ظرف وزمن يوجد مسلم مبتلى، وكافر غير مبتلى .. هذا لا يلغي من الحقيقة الأنفة الذكر شيئاً .. ويُقال في المقابل كذلك في كثير من الحالات والأزمنة يوجد كافر مبتلى، ومسلم غير مبتلى .. كافر فقير، ومسلم غني .. فهذا عملُ الله تعالى، يفعل ما يشاء .. ليس من الأدب والرضا والتسليم أن يتدخل العبد بعمل خالقه سبحانه: [لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ] الأنبياء: 23.

وبالتالي لا يحسب المسلم أنه بانتقاله من الإيمان إلى الإلحاد سينجو في دنياه من البلاء والشدائد، وأنه سيعيش حياة ملؤها الرغد والسعادة بمجرد انتقاله إلى الإلحاد .. لا؛ بل البلايا والشدائد ستلاحقه

¹⁴ أخرجه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية، السلسلة الصحيحة: 1692.

¹⁵ السلسلة الصحيحة: 2714.

وتتضاعف عليه .. والشيطان بعد أن يغويه ويضلّه، سيتبرأ منه، ومن شركه، وإلحاده: [وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] إبراهيم: 22.

خامساً: المؤمن يُعاقب على ذنوبه في الدنيا، حتى إذا جاء يوم القيامة يكون طاهراً من الذنوب، بينما الكافر يُمهّل عذابه الأكبر والأشد إلى يوم القيامة، وهذا وجه من جملة الأوجه التي تعين المسلم على حسن تفسير نزول البلاء بساحته في حال نزوله، كما في الحديث، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: " إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة " [16].

وقال ﷺ: " لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة، في جسده وأهله وماله، حتى يلقي الله ﷻ وما عليه خطيئة " [17].

وقال ﷺ: " ما ابتلى الله عبداً ببلاء وهو على طريقة يكرهها، إلا جعل الله ذلك البلاء كفارة وطيهوراً ما لم يُنزل ما أصابه من البلاء بغير الله، أو يدعو غير الله في كشفه " [18].

وقال ﷺ: " ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقي الله تعالى وما عليه خطيئة " [19].

وقال ﷺ: " وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشي في الناس ما عليه خطيئة " [20].

وفي رواية: " فما تزال البلايا بالرجل حتى يمشي في الأرض وما عليه خطيئة " [21].

وقال ﷺ: " ما يُصيبُ المؤمنَ من نصَبٍ - تعبٍ -، ولا وصَبٍ - مرضٍ - ولا همٍّ ولا حزنٍ، ولا أذىً ولا غمٍّ، حتى الشوكة يُشاكها؛ إلا كفرَّ اللهُ بها من خطاياها " البخاري.

وقال ﷺ: " ما من مؤمنٍ يُشاكُ بشوكةٍ في الدنيا يحتسبُها؛ إلا قصَّ بها من خطاياها يوم القيامة " [22].

وقال ﷺ: " ما من شيءٍ يُصيبُ المؤمنَ في جسده يؤذيه؛ إلا كفرَّ اللهُ به عنه من سيئاته " [23].

¹⁶ صحيح سنن الترمذي: 1953.

¹⁷ صحيح الأدب المفرد: 380.

¹⁸ صحيح الترغيب: 3401.

¹⁹ أخرجه الترمذي وغيره، صحيح الترغيب: 3414.

²⁰ صحيح الجامع: 993.

²¹ أخرجه أحمد في المسند، وقال أحمد شاكر في التخريج 52/3: إسناده صحيح.

²² صحيح الترغيب: 3411.

²³ أخرجه الطبراني والحاكم، صحيح الترغيب: 3412.

وقال ﷺ: " ما من مصيبة تصيب المسلم؛ إلا كفر الله عنه بها، حتى الشوكة يُشاكها "متفق عليه. وفي رواية لمسلم: " إلا رفعه الله بها درجةً وحطَّ عنه بها خطيئةً ". وقال ﷺ: " إذا اشتكى المؤمن؛ أخلصه الله من الذنوب كما يُخلصُ الكيرُ حَبَثَ الحديد " [24].

وقال ﷺ: ما من مؤمن ولا مؤمنة، ولا مسلم ولا مسلمة، يمرض مرضاً، إلا قصَّ الله به عنه من خطاياهم [25]. وهذا لا يمنع من أن يسأل الله تعالى العفو والعافية، في الدنيا والآخرة.. فالدعاء يدفع البلاء، والقدر، ويستبدله بقدرٍ آخر.

سادساً: يُقال لهذا المسلم الذي يُسارع في التساؤل، والاعتراض، ومن ثم الشك: لا تُركي نفسك على الله.. ما أصابك من بلاء أو مصيبة فمن عند نفسك، وبما كسبت يداك من الخطايا والذنوب، لو كنت تعلم، قال تعالى: [فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى] النجم:32. وقال تعالى: [وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ] الشورى:30. [أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ] آل عمران:165.

وفي الحديث: " لا يُصِيبُ عبداً نكبةٌ، فما فوقها أو دونهما، إلا بذنبٍ، وما يَعْفُو اللهُ عنه أَكْثَرُ " [26]. فمن الفقه والأدب أن تتعرف على سبب نزول البلاء، قبل أن تُركي نفسك على الله، وتبرئها من الخطايا!

يروى أن مُحمَّد بن سيرين لما ركبهُ الدِّين اغتمَّ لذلك، فقال: " إني لأعرف هذا الغم بذنبٍ أصبته منذ أربعين سنة "!

وقال بعض السلف: " إني لأعصي الله، فأرى ذلك في خلق دابتي وامرأتي "، فإذا نزل بهم البلاء تعرفوا على سببه ليقنعوا عنه، ويتوبوا!

رحم الله الحسن البصري، إذ يقول: " لولا ثلاثة ما طأطأ ابنُ آدم رأسه: الموت، والمرض، والفقر ".
سابعاً: جرت سنة الله تعالى في خلقه أن تأتي المنح والعطايا بعد المحن، وأن يأتي الفرج بعد الكرب والضيق، وأن يأتي النصر بعد الصبر، وأن يأتي اليسر بعد العسر.. فكم من عسر سخطناه كان سبباً ليسرٍ وفتح ونصر، وسؤددٍ عظيم.. وكم من شدة سخطناه اليوم، وحمدناها غداً لما انكشفت عنه وانجلت.. وكم من ضارة من وجهه، كانت نافعة من أوجه.. وفي الأثر " لو اطلعتم على الغيب لرَضِيتُم بالواقع "، والله تعالى يقول: [وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا

²⁴ أخرجه الطبراني وغيره، صحيح الترغيب: 3417.

²⁵ صحيح الأدب المفرد: 393.

²⁶ صحيح الجامع: 7732.

تَعْلَمُونَ [البقرة:216.] فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا [الشرح:5-6. وفي حديث مرسل: " لن يغلب عسرٌ يُسرين " .

كتبَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي عبيدة بن الجراح: " مهما ينزلُ بامرئٍ من شدةٍ يجعل اللهُ له بعدها فرجاً، ولن يغلبَ عسرٌ يُسرين " .

وقال صلى الله عليه وسلم: " واعلم أن في الصبرِ على ما تكره خيراً كثيراً، وأنَّ النَّصرَ مع الصبرِ، وأنَّ الفرجَ مع الكربِ، وأنَّ مع العسرِ يسراً " [27].

ثامناً: هناك نعمة تعلو جميع النعم لا يعرفها ولا يتذوق طعمها إلا المؤمن، الفقير والغني سواء؛ ألا وهي نعمة الإيمان بالله، نعمة ولذة القرب من الله تعالى، ومناجاته .. التي تورث صاحبها الاطمئنان، والسكينة، والرضا، والراحة القلبية والنفسية .. وهو ما لا يشعر به الكافر الملحد ولا يعرفه، ولا يغنه عنه شيء من متاع وحطام الدنيا مهما كثر !..

فأنت يا من تتسخط البلاء تحت راية الإيمان، وتهرب إلى الكفر والإلحاد .. فإنك بذلك تحرب من الأمن والأمان، والاطمئنان، والهداية، والراحة، والسكينة، والأنس، وانسراح الصدر .. إلى الخوف، والقلق، والضيق، والكآبة، وضيق الصدر .. وأي بلاء أنكد وأشد من هذا البلاء .. وأي خير تنشده بالحدك يمكن أن يعوضك هذا الخير العظيم الذي يفوتك .. وقد تأملنا حال أكثر الكفار والملحدون غناً، وشهرة، وبزخاً، وإسرافاً .. فوجدناهم يعيشون على المهدئات والمسكنات التي تخفف عنهم بعض الكآبة، والقلق، والاضطرابات النفسية التي يعانون منها .. صدق الله العظيم: [وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى] طه:124. [فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَمَّا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ] الأنعام:125. [الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ] الرعد:28.

اللهم اهدِ شباب الإسلام، واهدِ بهم .. واحفظهم من كل شرٍّ وسوء .. اللهم وفرِّج الكرب .. وأزل الهمم .. وارفع البلاء عن المسلمين عامة، وعن أهل الشام خاصة .. إنك سميعٌ قريبٌ مجيب، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

عبد المنعم مصطفى حليلة

" أبو بصير الطرطوسي "

1441/4/7 هـ. 2019/12/4

www.abubaseer.bizland.com

²⁷ رواه أحمد في المسند، وصححه أحمد شاكر في التخریج.